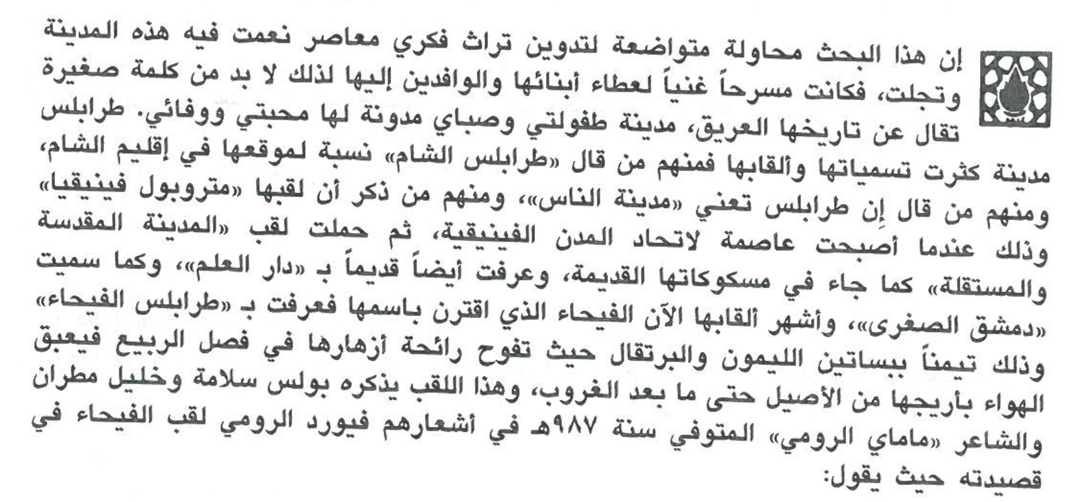
الطرق الصوفية في طرابلس

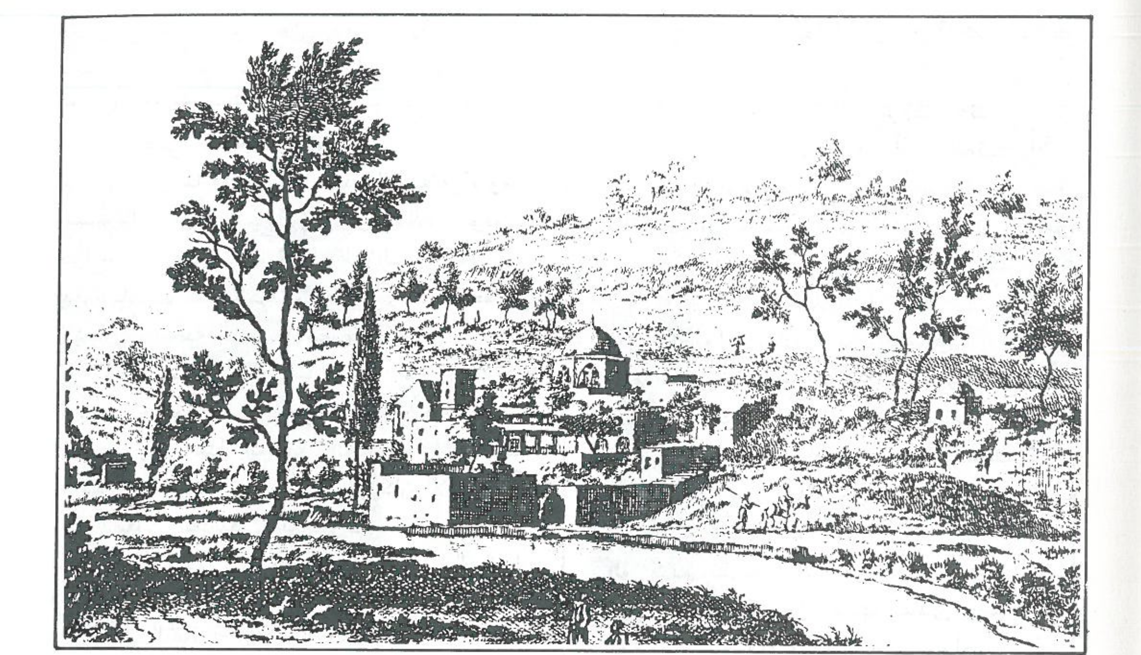
د. غادة المقدم



إن هذا البحث محاولة متواضعة لتدوين تراث فكري معاصر نعمت فيه هذه المدينة وتجلت، فكانت مسرحاً غنياً لعطاء أبنائها والوافدين إليها لذلك لا بد من كلمة صغيرة تقال عن تاريخها العريق، مدينة طفولتي وصباي مدونة لها محبتي ووفائي. طرابلس مدينة كثرت تسمياتها وألقابها فمنهم من قال «طرابلس الشام» نسبة لموقعها في إقليم الشام، ومنهم من قال إِن طرابلس تعني «مدينة الناس»، ومنهم من ذكر أن لقبها «متروبول فينيقيا» وذلك عندما أصبحت عاصمة لاتحاد المدن الفينيقية، ثم حملت لقب «المدينة المقدسة والمستقلة» كما جاء في مسكوكاتها القديمة، وعرفت أيضاً قديماً بـ «دار العلم»، وكما سميت «دمشق الصغرى»، وأشهر ألقابها الآن الفيحاء الذي اقترن باسمها فعرفت بـ «طرابلس الفيحاء» وذلك تيمناً ببساتين الليمون والبرتقال حيث تفوح رائحة أزهارها في فصل الربيع فيعبق الهواء بأريجها من الأصيل حتى ما بعد الغروب، وهذا اللقب يذكره بولس سلامة وخليل مطران والشاعر «ماماي الرومي» المتوفي سنة ٩٨٧هـ في أشعارهم فيورد الرومي لقب الفيحاء في قصيدته حيث يقول:

وإن كان وادي الشام ساد بملثم ... طرابلس الفيحاء باسمة الثغر

حكت جنة الفردوس حسناً ومنظراً ... وسكانها الولدان تسمع على البدر



□ التكية المولوية في طرابلس.

وهنا تأييد قاطع إلى أن لقب الفيحاء كان يطلق على طرابلس منذ أكثر من ٤٠٠ سنة.[١]

ولم تكن طرابلس علمياً وثقافياً أقل رائحة طيبة من عطر بساتينها فقد اجتذبت مكتباتها ومدارسها في العصور الوسطى الكثير من طلاب العلم والراغبين في المعرفة وامتلأت المدينة بأساتذة كل علم وفن فأتى الطلاب من كل حدب وصوب يقصدونها، وتعتبر المجالس العلمية فيها والتي كانت تدرس الدين وعلى الأخص علم الحديث هي الأكثر عدداً وكثافة. إذاً أهل طرابلس نعموا بالرخاء والثراء الثقافي إلى جانب الثراء المادي في تلك الفترة وذلك بسبب موقعها الجغرافي حيث نشطت التجارة والصناعة والزراعة فأدت إلى ازدهار المدينة وعيش أبنائها في بحبوحة واسعة، وهذا ساعد على نهضتها نهضة ثقافية كبيرة ونشاط علمي متدفق، فهذه المتعددية من أدب وفقه وفن أدى إلى استقطاب أهل علماء الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، ولذلك لا بد لنا من عرض لكلمة «تصوف» ثم مراحل الطريق الصوفي المتعارف عليه الآن في المدينة وأهم الطرق المتبقية من خلال مقابلة مع رئيس الطرق الصوفية.

فالطرابلسيون مجتهدون يحبون العلم والمعرفة، مؤمنون متصوفون يسعون دائماً لله تعالى وقد قال في كتابه الكريم: «والذين اهتدوا زدناهم هدى»، وتاريخياً وجد التصوف منذ القدم عند جميع الأديان السماوية والوثنية كمهذب للنفس الإنسانية وموجه للمرء نحو الطريق الروحي يدفعه للخير وفعل الخير فقط دون سعي مادي أو معنوي ويبعده عن الشر لأنه شر يوصل إلى الخطيئة، فالإنسان

الصوفي هنا يعبر عن إيمان بهذا الطريق الخلقي القويم، فهو واقع لثقافة وحضارة عاشها الأجداد والآباء وآمنوا بها في طرابلس فمشوا على سنة الرسول وكان تصوفهم الإيمان بكل ما قالت به العقيدة الإسلامية، وقد سماه الرسول بالجهاد الأكبر، فالمتصوفون خواص الحضرة كما يقول الغزالي والتصوف يدين بالحب كما يذكر ابن عربي ويشمل جميع الأديان، ومحبة الناس لبعضهم البعض ما هي إلا نتيجة لحب الله كما يقول جلال الدين الرومي. والحقيقة أننا في هذه المرحلة بأمس الحاجة إلى هذا الطريق الصحيح إن شئنا تسميته بالطريق الصوفي ـ وإن كان الآن بعيداً عن المعنى الفلسفي المعروف ـ وهو طريق مفعم بالحب والآخاء والصفاء والرضا والإحساس بالمسؤولية وبث القيم الخلقيه بالوسائل الثقافية والعلمية التي تتماشى معنا ومع أبنائنا.

فالتصوف في جوهره تجربة روحية يعانيها الصوفي ساعياً إلى بث الدعوة لوجه الله تعالى. ولنلقي نظرة سريعة على تعريفات بعض المعاجم للتصوف فمنها يقول: هو «الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال، والتصوف هو تصفية القلوب ومنازلة الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع رسول الله في الشريعة وبذل المجهود والأنس بالمعبود».[٢]

وقد أقبل المسلمون من الخاصة على التصوف لمعانيه الروحية الرقيقة كما قلنا ذات الطابع الخلقي العميق، فكثر الخلص والاتباع وتشعبت وتعددت فرقه وطرقه. من هذه الفرق ما بقى منها حتى الآن في مدينة طرابلس وهي كما عرفنا مدينة الأدب والاجتهاد والثقافة وكان لها الدور المميز في المنطقة مما جعلها قبلة للدارسين والقاصدين للمعرفة ولذلك نجد فيها تكيات ومدارس وزوايا متعددة تظهر عراقتها في هذا المجال.

من هنا وجب علينا التوقف عند الطريق الصوفي والتعرف على أهم آدابه المتبعة الآن، منها الحال: وهو من آداب الصوفية أي ما يحل بالقلوب من صفاء الذكر[٣] فهنا أول الطريق الصوفي وهو يبتدىء بتطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى كما يقول الغزالي[٤] ولذلك قيل الصفاء يتأدب به الصوفي وينتهجه، (وهذا في الواقع الطريق الصرف) وعلى الأخص الرعيل الأول عند مقابلتهم للرسول إذا قالوا: يا رسول الله إنا إذا كنا عندك كانت قلوبنا على حال فإذا خرجنا من عندك كانت قلوبنا على غير ذلك الحال، فقال رسول الله: «لو كنتم تكونون إذا خرجتم من عندي على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة». الصفاء مقام أساسي وواضح لتأدب المريد أثناء سلوكه الطريق.

الوجل: الوجل عند المتصوفة هو الانتقال إلى الأعمال القلبية، ولذلك سألت السيدة عائشة الرسول عن قول الله في كتابه: «والذين يؤتون ما أتوا قلوبهم وجلة» أهم الذين يزنون ويشربون الخمر، قال: لا يا بنت أبي بكر الصديق ولكنهم الذي يصلون ويصومون ويتصدقون وقلوبهم وجلة.[٥] هم أهل الفهم، وأهل الحقيقة ينتقلون من الرسوم إلى الحقائق.

الخوف: حال من الأحوال تعرض للمؤمنين، والخوف يختلف من إنسان لآخر فهناك خوف من العقاب وخوف من القرب، أما خوف العقاب فهو «يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار...[٦]

أما خوف القرب فهو: «ولمن خاف مقام ربه جنتان»[٧] هنا الإيمان مربوط بالخوف من الله وبالتقوى والعبادة، يصل المريد المتأدب عن طريق الخوف والسير فيه إلى هذا المقام المستحب.

الفقر: كانت المتصوفة وما زالت تؤمن بقول الرسول: ليس الغنى من كثرة العرض إنما



□ الدف أثناء قيامهم بالذكر في الزاوية.

الغنى عن النفس».[٨] وكان عمر بن الخطاب وأبو بكر يطبقان غنى النفس فحدثنا عمر عن حادثة له مع رسول الله قال: «أمرنا رسول الله أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله: ما أبقيت لأهلك، قال ما أبقيت لهم إلا الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً.[٩] فقبل النبي ما جاء به لما علم من حاله، وهذا يؤكده الغزالي في عرضه لطريق الصوفي المتعبد بعد ترسيخ إيمانه بالله ومجاهدة نفسه بذكره تعالى وبعده عن شهوات الدنيا «فلا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وقطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق.[١٠]

الخشوع والاستغفار: من المسائل المهمة التي استأثرت بالبحث في كتب التصوف، مثل الرسالة القشيرية للقشيري وكتاب قوت القلوب للمكي وكتاب اللمع لأبي نصر السراج، هي دوام الاستغفار، وهذه عادة يقوم بها المتصوف المؤمن تطبيقاً لقول الرسول: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة».[١١]

أما خشوع القلب فهو خشوع المؤمن وانقياده للحق. وقد ردد الرسول صلعم «وأعوذ بك في قلب لا يخشع».[١٢] فالخشوع هو قيام القلب بين يدي الرحمن، فمن خشع قلبه لم يقترب منه الشيطان فخمدت نيران شهوته وسكن دخان صدره وأشرق نور التعظم في قلبه، فماتت شهوته وعاش قلبه فخشعت جوارحه.

المحبة: وهو مقام من مقامات التصوف،



□ حفلة ذكر الشيخ عيد حموي والشيخ الزاهد.

والإسلام فاض بالحب والعاطفة فكان ذلك أول حال رسول الله حين أقبل إلى جبل حراء حيث كان يخلو بربه ويتعبد حتى قالت العرب: «إن محمداً عشق ربه»[١٣] فالمرء مع من أحب كما قال رسول الله، وأيضاً قال: «من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه» وقوله تعالى: «اتبعوني يحببكم الله». والمحبة هي من الصفات التي يوصف الخلق بها فيما بينهم، وقد أوردتها الشريعة كصفة للحق، فالحب في الله من أوثق عرى الإيمان والإلفة.

من هنا نرى أن التصوف الإسلامي الذي قامت عليه الطرق الصوفية إنما انطلق وتدفق من النبع الأول وهو الزهد النبوي ولذلك سنعرض هذه الطرق بعد ربطها بماضيها العريق حتى نراه رؤية واضحة تنير لنا حاضرها ومستقبلها محاولين توثيق صلات الحاضر بالماضي قبل أن ينقطع وينهار، فكيان الأمة لا يقوم ويقوى إلا على تراثها وقيمها الروحية إلى جانب التحضر العقلاني الذي يتماشى مع مجتمعنا وأصالتنا، لذا فإن الطرق الصوفية التي عاشت وبقيت في هذه المدينة التاريخية هي: الجيلانية أو الكيلانية أو القادرية وهي تابعة لعبد القادر بن موسى بن عبدالله بن جنكى دوست الحسن، أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي مؤسس الطريقة، هو من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتفقه وسمع الحديث وقرأ الأدب، وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة ٥٢٨هـ وتوفي بها. ومن كتبه الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب والفيوضات الربانية وللمستشرق مرجليوث الانجليزي رسالة في ترجمته نشرها ملحقة بالمجلة الاسيوية الانكليزية، ولموسى ابن محمد اليونيني كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني.[١٤]

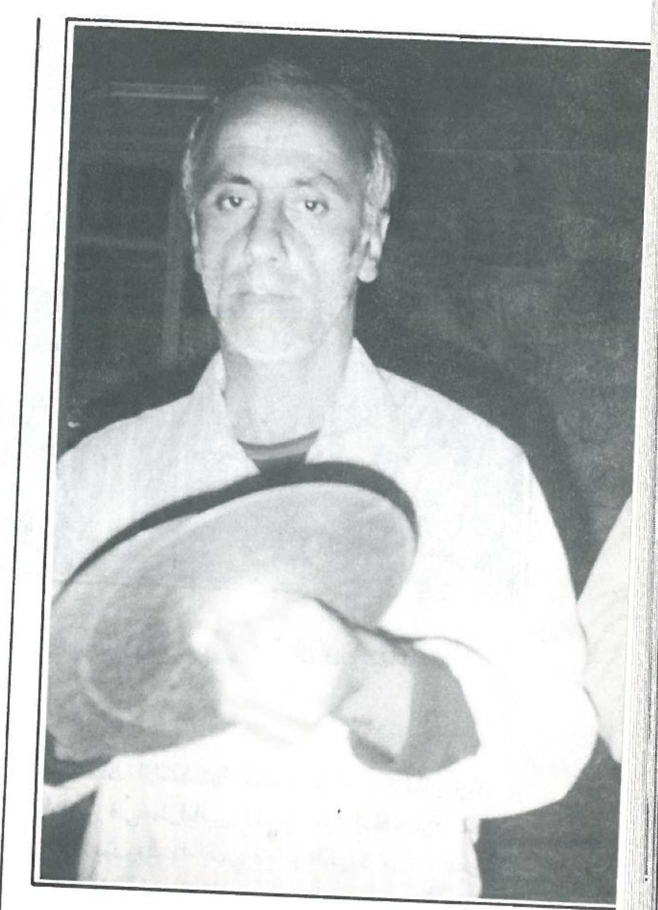
كان الجيلاني يلقي أثناء اجتماعه بمريديه



□ مجموعة من المشايخ أثناء إحدى النوبات في شوارع طرابلس.

وطلابه، الدروس الدينية والأخلاقية والروحية وكانت تتضمن عظات كثيرة وأغلبها مجالس حول الفقر والبلاء وبأن الإيمان قول وعمل اذ يقول: فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة، وهذا ما نجده مطابقاً لقول الإمام الغزالي حيث قال إن التصوف علم وعمل. ويدعو الجيلاني في مجلسه على أن الزهد والبكاء ضروري للمتصوف، وهو يطلب من مريديه صفاء القلب فيقول: فلتكن قلوب القوم صافية طاهرة ناسية الخلق ذاكرة لله، وأن لا تنشغل في هموم الدنيا، وكان يشدد على الصبر ويقول لهم: إعرفوا الله ولا تجهلوه وأطيعوا الله ولا تعصوه ولذلك فإن مريدو الدنيا فيهم كثرة ومريدة الآخرة فيهم قلة ومريدو الحق عز وجل الصادقون في إرادته، لأن المؤمن يتزود للآخرة، والكافر يتمتع في الدنيا. وهنا يؤكد على معرفة الله أو الحقيقة وهي الأصل في التصوف.[١٥]

هذه الطريقة الآن تتابع سيرها على نهج شيخها وإمامها الجيلاني القادري وتدرس المقامات الأساسية للتصوف ـ كما ذكر رئيس الطرق في طرابلس الشيخ عيد الحموي ـ حيث يقوم بتدريسها، فهي تعلم المريد قراءة القرآن، والصلاة، ثم الإطلاع على الدين الإسلامي كما بشر به سيد المرسلين النبي محمد صلعم، ويُطلب حفظ بعض الأوراد للسيد الجيلاني من كتابه الفتح الرباني أو كتب أخرى له، ثم يُعلم صفاء القلب والزهد بالدنيا، وطاعة الشيخ واحترام الناس وبالجملة تعطى للمريد دروس خلقية يجب أن يسلكها. بعد هذه المرحلة ينتهي المريد من دراسة ما قرره عليه الشيخ أثناء خلوته التي تُحدد بناء للشخص كما يقول الشيخ عيد لأنه يعرف شخصية المريد معرفة جيدة. فهناك أشخاص لا تتحمل أكثر من ثلاثة أيام وهناك من يتمتع بالقدرة على الاحتمال وفي أحيان نادرة تستمر الخلوة أربعين يوماً. هنا يصبح المريد برتبة نقيب إذ يتمتع بالمعرفة المبدئية التي تؤهله إلى ممارسة رتبته وانتقاله باجتهاده في سبيل الله وحسن صفاء قلبه وطهارته والاستزادة في الاطلاع



□ ما يسمى بالكاسات.

إلى الرتبة الأخيرة من وجهة نظر شيخه، فيصبح خليفته بعد حصوله على الإجازة، وهي بمثابة شهادة، ما يعتبر قادراً على تسيير أعمال الخلافة من ختم وتدريس ومطلعاً على طريقة الشيخ الجيلاني بكاملها.

ومن الملاحظ أن لكل الطرق الصوفية مراحل وشروط وإن كانت في بعضها أقسى أو أخف وذلك تبعاً لهذه الطرق.

أما الزوايا المتواجدة الآن في طرابلس للطريقة القادرية (وهذا بناء لما ذكره الشيخ عيد الحموي) فهي:

١) **الزاوية الكلامية** في سوق الصاغة رئيسها الشيخ عيد الحموي وتقام فيها الشعائر الدينية كحلقات الذكر أسبوعياً يوم الأربعاء، وبعد صلاة العشاء يجتمع أهل الزاوية لدرس ديني يقوم به الخليفة.

٢) **زاوية المدرسة النورية** رئيسها الشيخ محمد سعدالله الحموي وهو يدرس فيها أيضاً الرفاعية.

٣) **زاوية خضر آغا** سوق العطارين (وهي خاصة) رئيسها الشيخ أحمد جنيد يستخدم قسماً من منزله.

٤) **الزاوية السبسبية** طلعة عقبة الحمراوي رئيسها الشيخ أبو منير النابلسي والجدير بالذكر هنا أن جميع الشيوخ معهم إجازات ويطبقون نفس الأسلوب والمنهج الذي تسير عليه بقية الزوايا.

الرفاعية: ترجع الرفاعية إلى مؤسسها أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني أبو العباس، الإمام الزاهد، ولد في قرية حسن (من أعمال واسط بالعراق) تفقه وتأدب في واسط وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير، وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح بين أواسط والبصرة وتوفي بها، وقبره حتى الآن محط الرجال لسالكي طريقته. وقد صنف كثيرون كتباً خاصة به وبمنهجه واتباعه، وفي كتاب عجائب واسط لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي بلغ مئة وثمانين ألفاً في فترة حياته وجمع بعض كلامه في رسالة سميت رحيق الكوثر وينسب إليه شعر منه هذه الأبيات الرقيقة:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم
أنوح كما ناح الحمام المطوق

ويذكر الزركلي أنها ليست له.[١٦]

نظّم الإمام الرفاعي طريقته وقسم اتباعه إلى مجموعات تبدأ من المريد - التلميذ ولكل مجموعة من المريدين شيخ مدرس ولا يمكن لابن الطريقة أن يكون شيخاً إلا إذا بدأ من أولها مريداً.

وفي هذه الحالة يجب أن يعرف كما قال الإمام «إن الطريق إلى الله صعب الا على من دخله بوجه صادق وشوق مزعج فيهون عليه حمل الأثقال وركوب الأهوال.» والمريد لا يصل إلى مراده إلا إذا خرج عن مألوفات حسه وترك جميع الشهوات والمباحات.

ومراحل تعلم المريد عنده هي: ١ ـ فقد المعلوم المحسوس المفضي إلى البؤس أي الماديات وحب الدنيا.

٢ ـ الصبر والاياس من جميع الأشياء إلا الله تعالى.

٣ ـ كتمان السر حتى لا يشكو إلى مخلوق مثله.

٤ ـ ترك المسألة لكي لا يهرب إلى الخلق من باب الله.

٥ ـ أن يظهر الغنى في الفقر.

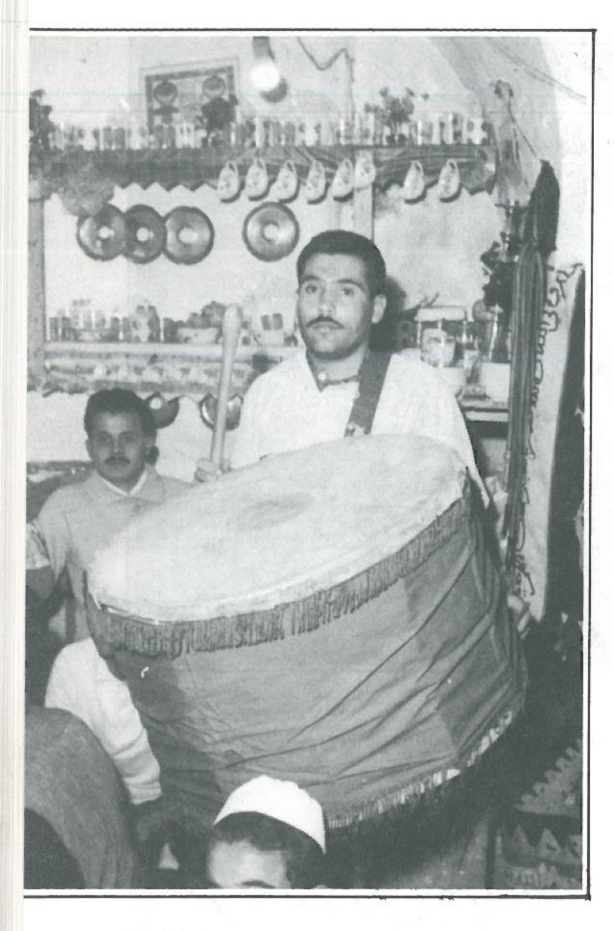
٦ ـ أن يعمل لله تعالى ولا يرى أنه يعمل شيئاً.[١٧]

وعندما يبلغ المريد مرحلة من العبادة والمعرفة والتقى يُسمح له أن يكون شيخاً، وهو يسمى الآن خليفة.

إذاً الرفاعي درّس الدين وعلّم المريد كيف يكون رجلاً في الحياة يستحق شرف الانتساب إلى دين محمد ثم دعوته إلى الحب والحنين والمؤاخاة والاخلاص والابتعاد عن الغرور وصفاء القلب وجمال العقل بالفكر وجمال اللسان بالصمت، ومن أشهر أقواله التي توضح طريقته: طريقي دين بلاد بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء وقلب بلا شغل ونفس بلا شهوة، والطريقة هي الشريعة، وكل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة.[١٨]

أما الزوايا الرفاعية الموجودة الآن في طرابلس هي: ١ ـ زاوية في سوق القمح رئيسها الشيخ محمود أحمد الزاهد، وتدعى زاوية الشيخ بشير المصري.

٢ ـ زاوية قرب جامع المعلق حمام الجديد رئيسها الشيخ فوزي المنجد.



□ الشيخ عيد الحموي عام ١٩٦٥

٣ ـ زاوية يرأسها الشيخ أحمد جوهر يشغل قسم من منزله.

٤ ـ زاوية في منطقة القبة رئيسها الشيخ رسلان النابلسي.

٥ ـ زاوية باب الرمل رئيسها الشيخ عدنان ميري وهو مغربي الأصل.

٦ ـ زاوية في سوق العطارين قرب الجامع الكبير رئيسها الشيخ علي الباروردي والده الشيخ سلمان الباروردي الذي توفي منذ فترة وجيزة وكان يرأس هذه الزاوية.



□ الشيخ عيد الحموي شيخ المشايخ يتهيا لوضع السيوف على رقبة المريد المتطوع.

٧ ـ زاوية في سوق الصاغة رئيسها الشيخ عبد الغني المنافيخي وهي ملكه وقفها للذكر من بعده.

الشاذلية: أبو الحسن الشاذلي (٩١هـ ـ ٦٥٦هـ) (١١٩٥م ـ ١٢٥٨م) هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم ابن هرمز الشاذلي المغربي، رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة وصاحب الأوراد المسماة حزب الشاذلي، ولد في غمارة من قرى افريقيا، تفقه وتصوف بتونس وسكن شاذله فنسب إليها ودرس الكيمياء في أول أمره ثم تركها ورحل إلى بلادالمشرق فحج ودخل العراق ثم سكن الاسكندرية. توفي بصحراء عيذاب وهو في طريقه إلى الحج، ينسب إلى الادارسة في المغرب. قال الذهبي نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، وله الحزب ورسالة الأمين في آداب التصوف رتبها على أبواب، والسر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل، ولاحمد بن محمد بن عياد كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية في سيرته وطريقته.[٢٠] أهم ما نادى به الشاذلي أنّه:

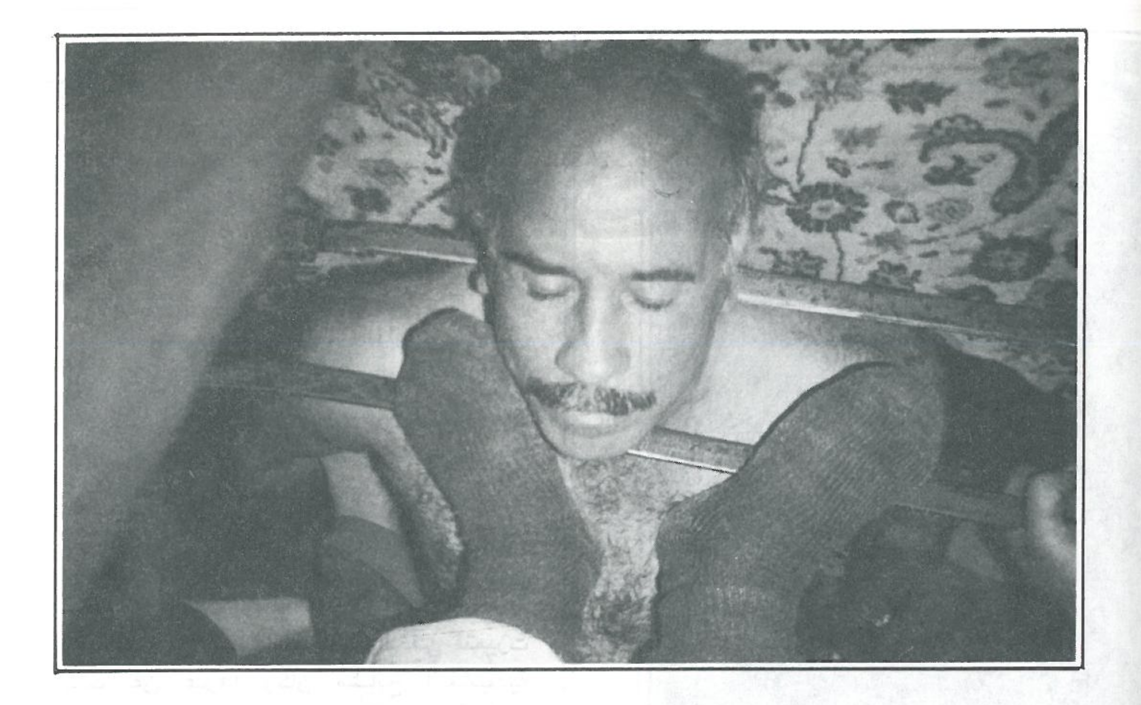
١ ـ كان يأمر اتباعه بالجد والعمل المثمر في الحياة ولا يستحسن الخمول والكسل فليس في الإسلام من شيء وإنما حق السمو الروحي مراقبة الحق في كل صغيرة وكبيرة والعمل والعبادة معاً.

٢ ـ كان لا يحفل بالتزيّن بمظاهر الصوفية أي زي الفقراء بل يحض اتباعه على عكسه.

٣ ـ كان يخالط الناس على مختلف طبقاتهم من الخاصة والعامة.

٤ ـ كان حريصاً على ربط الشريعة بالحقيقة، ونادى أن الله ضمن السعادة في الشرع للعاملين فيها ولم يضمنها لأهل الكشف من المخالفين.

٥ ـ كان لا يندفع في تيار الشطحات



□ يقف الشيخ عيد على رقبة أحد المريدين والسيوف عليها دون أن يجرح أو يخدش.

العنيفة ولا يغرم بالفلسفة العميقة ويحرص على كل مظاهر الدين المثبت بسياج الشرع، ولا يصل للسكر الذي يذهب العقل، لذلك نرى أن الشاذلي تأثر بالعلوم الدينية التي درسها وتفوق في كلّ فروعها من فقه وتفسير وحديث وأصبح من أهم العلماء في تلك الفترة.[٢١]

أما زوايا الطريقة الشاذلية في طرابلس الآن فهي:

١ ـ زاوية على ضفة نهر أبو علي خلف جامع التوبة رئيسها الشيخ وجيه الزاهد.

٢ ـ زاوية في منطقة القبة رئيسها الشيخ محمد المير وهو إمام جامع القبة.

٣ ـ زاوية الخناق منطقة أبو سمراء رئيسها الشيخ فوزي الشامي يستخدم قسم من منزله.

البدوية: (٥٩٦هـ ـ ٦٧٥هـ) (١٢٠٠م ـ ١٢٧٦م) مؤسسها السيد أحمد بن علي بن ابراهيم الحسيني أبو العباس البدوي المتصوف صاحب الشهرة في الديار المصرية، أصله من المغرب، ولد بفاس وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس فخرج لاستقباله هو وعسكره، وأنزله في ضيافته، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤ وعظم شأنه في بلاد مصر فانتسب إلى طريقته جمهور كبير بينهم الملك الظاهر. توفي ودفن في طنطا حيث تقام في كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري احتفاءاً بمولده. لم يذكر له مترجموه تصنيفاً غير حزب ووصايا وصلوات وقد أفرد بعضهم سيرته في كتب منها كتاب السيد البدوي لمحمد فهمي عبد اللطيف.[٢٢]

هذه الطريقة تتمتع بنفس مزايا الطرق الأخرى، ومن الملاحظ كما يقول رئيس الطرق: مريدوها قلة لأنها وصلت إلى طرابلس بعد انتشار أغلب الطرق وانتسابهم إلى طرق أخرى

ومع ذلك يوجد في طرابلس الآن بعض الزوايا التي تدرس قواعدها:

١ ـ زاوية في الميناء رئيسها الشيخ محمد سعيد الغندور ابن الشيخ صبري الغندور الذي توفي مؤخراً بعد أن جعل ولده خليفة عليها.

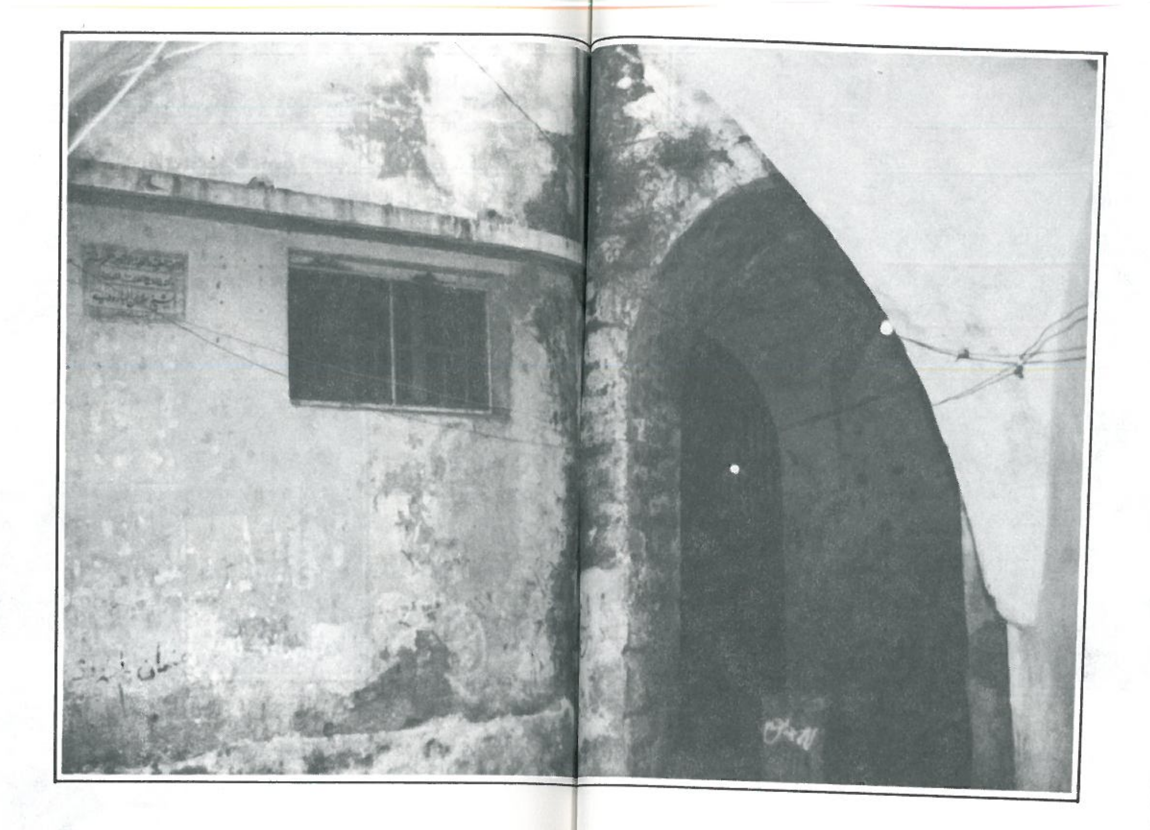
٢ ـ زاوية طلعة الدلبة تحت القلعة رئيسها الشيخ عامر رشاد اللوزي.

النقشبندية: يعتبر سلمان الفارسي مؤسس النقشبندية. أما محمد بهاء الدين الاويسي البخاري (المعروف شاه نقشبند) فقد كان ناشر الطريقة بفضل تعاليمه، ظهرت أهميتها كملاذ للمؤمن المسلم من الشعب فقد كان بحاجة إلى مرشد يحصن له قلبه عن الشيطان ويوجهه إلى الخير ويأمره بإتباع السلوك الحميد واتباع الرياضيات الروحية المطلوبة لذلك اختارت النقشبندية الذكر الخفي فتميزت بذلك عن غيرها وكان مشايخ النقشبندية يشتغلون بالذكر الجهري في البداية وبالذكر القلبي في النهاية، فهم يحاولون البدء بتخليص مناطق الجسم الضعيفة من الشيطان ثم يصلون إلى القلب. فلما بلغ الأمر إلى الشيخ محمد الاويسي ابتكر خطة جديدة وهي البدء بالذكر القلبي ثم تبعه في ذلك من بعده مشايخ هذه الطريقة وقالوا: بدايتنا نهاية غيرنا. ومن وجهة نظر النقشبندية أن فائدة البدء بالذكر القلبي هو محاصرة الشيطان في قلب المريد وقطع عنه شهوات النفس المؤثرة عليه مما يؤدي إلى استسلام بقية أعضاء الجسد، وهنا يطهر القلب من أدران نجاسته ويستولي المريد على بقية الجسد فيتحرر من عبودية النفس والشيطان ويصبح عبداً طيعاً لله تعالى.[٢٣]

أما زوايا الطريقة النقشبندية في طرابلس الآن فهي:

١ ـ زاوية في منزل الشيخ عدنان القباني يرأسها الشيخ ناظم القبرصلي، الشيخ عدنان القباني، والشيخ سليم القباني.

٢ ـ زاوية مدرسة الدبهاء جانب جامع



□ زاوية الشيخ سلمان البارودي سابقاً وولده الشيخ علي البارودي الآن.

سيدي عبد الوهاب رئيسها الشيخ عدنان القباني، وتقام يومياً بعد صلاة العصر حلقة ذكر في هذه المدرسة.

٣ ـ زاوية السكركية تحت قبوة الطرطوسي رئيسها الشيخ فاضل معاليقي والشيخ ناصر كبارة. ويجب التنويه بوجود شيخ متعمق في النقشبندية ـ كما يقول رئيس الطرق ـ ولكنه منزوٍ على نفسه وهو الشيخ نظمي الزين.

المولوية: مؤسس المولوية هو محمد جلال الدين محمد بن محمد البلخي ثم القونوي المعروف بالرومي، ولد عام ٦٠٤هـ/١٠٢٧م في بلخ وتوفي عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م بقونية، ويروى أنه ينتهي نسبه من طرف الأب إلى أبي بكر الصديق، ويذكر نسبه كتاب الجواهر المضيئة هو محمد بن أحمد بن قاسم بن مسيب بن عبدالله بن عبد

الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه واشتهر بالرومي (ومولاناي روم) لطول إقامته بقونية أما والده فمعروف بـ (سلطان العلماء) واسمه بهاء الدين. ويذكرونه بـ (مولوي) وينسبون إليه الطريقة المعروفة بالطريقة المولوية.[٢٤]

عاش جلال الدين في القرن السابع الهجري وهو عصر التحول في الشرق الإسلامي وذلك عند اجتياح المغول للبلاد ولكن ظل الإسلام سائداً وبقيت الروح الإسلامية في أوجها. في هذا الجو عاش جلال الدين الرومي وكان مثله الأعلى الغزالي، وكانت نقطة التحول في حياته لقاؤه بشمس تبريز، فقد الهاه هذا الصوفي عن سيرته كفقيه وجعل منه صوفياً غارقاً حتى اذنيه.

انتقل جلاد الدين من الحياة العقلية والعلمية إلى الحياة الصوفية، وكان شمس الدين لبس الدراوشة ويذكر أنه في بدء المقابلة ألقى هذا الدرويش بالكتب التي كانت عند جلال الدين في الحوض وأخرجها كما هي من غير أن تتغير بالماء وغير ذلك من القصص التي يروونها عنه. ويمكننا القول أن كل ما حدث أثر في حياة جلال الدين الرومي فتحول من التدريس إلى التصوف ويصوّر هذا التحول في إحدى رباعياته بقوله «عندما اشتعلت نيران الحب في صدري أحرق لهيبها كل ما كان في قلبي فإزدريت العقل الدقيق والمدرسة والكتاب، وعملت على اكتساب صناعة الشعر وتعلمت النظم». وهنا يبدو لنا أن جلال الدين وجد في شمس مثالاً للزهد والحب وبذلك انصرف إلى الحياة الروحية حيث درس الآراء الآتية:

١ ـ دعوة الناس عامة ليعرفوا ما للقلب والتوجه لتصفيته.

٢ ـ العمل بالشريعة والابتعاد عن ترك الأوامر في كل حال.

٣ ـ إيجاد الصلح بين الصوفية والعلماء المدرسين. وقد نجح جلال الدين بذلك وكانت الثمرة إدخال كتاب المثنوي في برامج المدارس الدينية للتعرف على الأدب الصوفي الظاهري والباطني وذلك نتيجة لثقافته الدينية الشرعية التي نشأ عليها.

٤ ـ مواصلة النشاط العلمي الذي بدأ به والده، فربى علماء ووعاظاً.

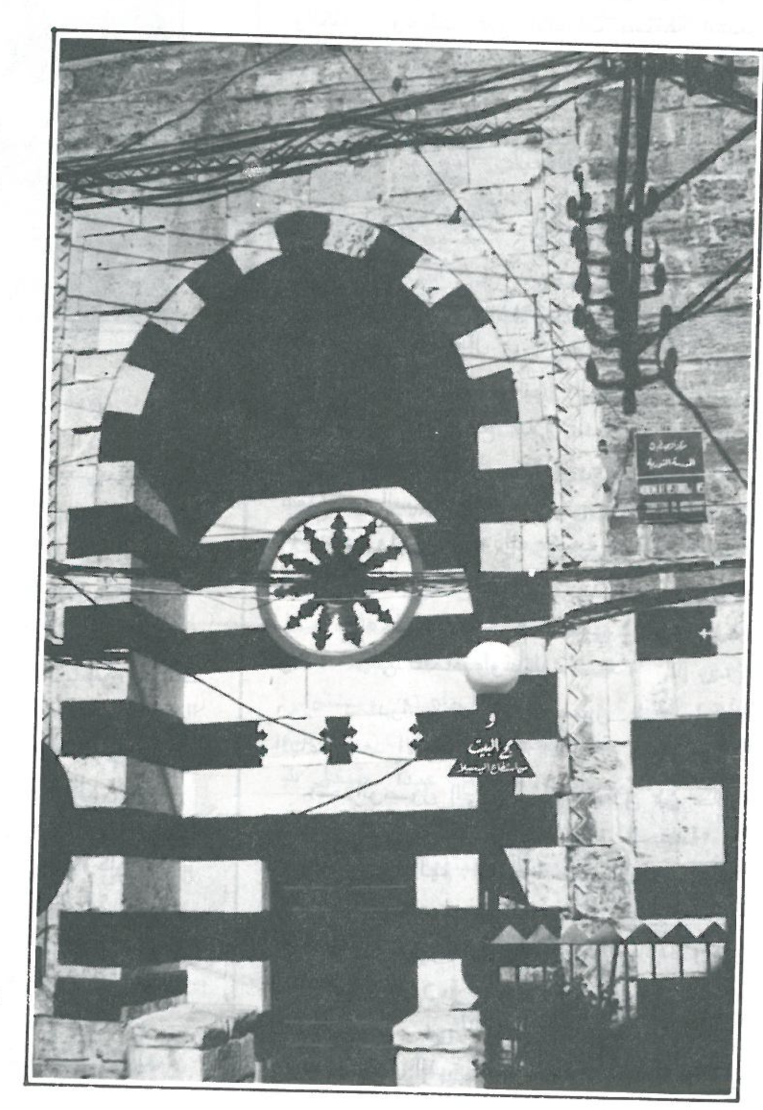
٥ ـ دراسة طرق الوصول إلى طهارة الباطن بعد الأخذ بطهارة الظاهر.

٦ ـ الوصول إلى معرفة الأخلاق من خلال العوامل التي توصل إلى الأخلاق الحسنة، ثم تربية رجال لهم المقدرة على أن يكافحوا بلسانهم ويدافعوا عن الإسلام، رجال يحبون الله واقفون في الطرف المقابل للزنادقة وأهل البدعة.[٢٥]

وبعد، هذه هي النقاط الأساسية التي كان يدرسها جلال الدين الرومي في مدرسته والتي

منها انبثقت طريقة الدراويش الفتل المولوية المعروفة الآن في طرابلس مؤسسها هو محمد بن محمد الخطيب والتي أخذت قسطاً وافراً من الشهرة ليس فقط بسبب تعاليم جلال الدين الرومي وإنما أيضاً بحلقات الذكر، فقد كان للموسيقى دور كبير في هذه الطريقة لأن جلال الدين الرومي لجأ إلى الذكر والسماع كلما حنّ إلى شيخه وكان للناي عنده دور أساسي في سماعه فهو يوقظ الهيام عنده، ويثير مشاعر الحب. إلى جانب ذلك نلاحظ في حلقات الفتل المولوية التي تتم في مناسبات دينية استخدامهم للدف وذلك ترويحاً للقلوب، فالموسيقى عند هذه الطريقة مثيرة للنفس الإنسانية والسماع الطيب يؤدي إلى ترغيب في الجنة.[٣٦] أما بالنسبة لزوايا هذه الطريقة في طرابلس الآن: فقد اغلقت التكية المولوية التي حفلت بتاريخ طويل بعد تهدم أجزاء منها، ووفاة الشيخ جلال المولوي.

١ ـ زاوية النورية يرأسها الشيخ محمد سعدالله الحموي.



□ صورة للمدرسة النورية (زاوية من زوايا القادرية والرفاعية والمولوية) الآن.



□ أحد المريدين يقوم بوضع النار في فمه.

٢ ـ زاوية الشيخ جلال السيد في قسم من منزله وهو تلميذ الشيخ أنور المولوي.

الخلوتية: اندثرت هذه الطريقة في طرابلس كما يقول رئيس الطرق الصوفية ولم يعد لها أي وجود. وبعد فإن الطرق الصوفية الآن وعلى الرغم من الدور التاريخي الكبير الذي لعبته سابقاً في حياة الشعوب الإسلامية المؤمنة فقد أصبح عدد المريدين فيها ضئيلاً بالنسبة للسابق، فكما علمنا يوجد لكل زاوية ما يقارب العشرين مريداً وأغلبية هؤلاء من العمال، أي وجود طبقة معينة من المريدين تشكل جمهور هذه الزوايا الآن، والسبب واضح وجلي ذلك أن الإنسان المثقف يعتبر نفسه قادراً على الوصول والاطلاع على الدين الصحيح واتباع الشريعة القويمة دون شيخ أو خليفة وإن كان سابقاً يلعب دوراً مهماً في الاقناع والترغيب في الدين. أما الآن فهناك وسائل كثيرة للمعرفة وهي الكتاب والتلفزيون والسينما وإن كنا نشك بقوة دور الإعلام في توجيه المؤمن الوجهة الصحيحة ودون خلفية سياسية معينة.

فالطرق الصوفية في طرابلس الآن هدفها الأساسي هو التدريس على سنة الرسول ونشر الشريعة الإسلامية الصحيحة بعباداتها وأحكامها وتصفية القلوب، وانكسار النفس، والاستغفار الدائم من الله والذكر الذي يجلب الخير للمؤمن ويوصله إلى طريق الله. والذكر تستخدمه أغلب الطرق في رمضان وعلى الأخص في العشر الأخير من هذا الشهر المبارك فتقضيها في الجوامع وقراءة القرآن والعفو والغفران من الله.

ولم تعد سنة المتصوفة القدامى تركهم النوم بعد الصلاة حتى تطلع الشمس سارية المفعول كما يقول رئيس الطرق لأن الحياة المعيشية صعبة فكثير من الأحيان يتخلف مريد عن مجلس شيخه وعذره في ذلك ملاحقة

رزق عيش عائلته، لذلك فالحياة في هذه الأيام تقف في وجه الخلوة وتشوش عليها صفاءها، وبعد أن كانت التكيات سابقاً ملجأً للسائل والمحتاج أصبحت تعتمد على التمويل الشخصي من الشيخ والمريدين لفقدان التمويل المادي من الأوقاف الإسلامية، من هنا ضعف موقفها واغلقت كثير من التكيات للحالة المادية المتواضعة لشيوخ الزوايا.

وقد تبادر إلى ذهني سؤال عن مكاشفات الشيخ ومشاهداته: هل يوجد الآن شيخ وصل إلى المكاشفة أو المشاهدة؟ وكان الجواب بالنفي من قبل رئيس الطرق الصوفية فتصفية القلوب موجودة والذكر موجود ولكن هناك دائماً معاناة الحياة الحالية. وعلى الرغم من عدم قدرة الشيوخ في هذه الفترة الوصول إلى المكاشفة نرى أن أغلب الطرق تستخدم ضرب الشيش والنار والسيف أثناء قيامهم بالنوبات مثل القادرية والرفاعية والبدوية وهي تقوم بذلك في الختام أي بعد انتهاء فصل الشتاء وختم تدريسها، وتجدر الإشارة إلى وجود نوبة واحدة تستمر دون توقف وهي نوبة الشيخ فوزي المنجد كما يذكر رئيس الطرق وهذه صور معبرة عن ضرب السيف والشيش حيث لا يشعر المريد المؤمن ولا يجرحه حدّ السيف على الرغم من وقوف الشيخ على رقبته فوق السيف.

وبعد اتمنى أن تكون هذه الدراسة القصيرة قد أعطت صورة واضحة عن الطرق الصوفية في طرابلس الآن فهي تحاول مساعدة المسلم المؤمن وإعادته إلى أيام المجد، إلى سيرة الرسول والراشدين وتجعلهم مثلاً أعلى له. وليعلم كل متتبع لهذه الطرق في طرابلس أنها تقوم بتثبيت قواعد الشريعة والعمل بها دون سعي وراء كسب مادي وإنها لوجه الله تعالى وفي سبيل الرضا والصفاء وطبعاً بحسب إمكانياتها، وهنا سؤال يطرح نفسه: متى تمول وتنظم هذه الطرق من قبل دائرة الأوقاف الإسلامية لتعود إلى سابق عهدها الفعال سيما وأن الشعب الطرابلسي شعب مؤمن عريق في إيمانه وتراثه؟

□ □ □

الحواشي

(١) كتاب المؤرخ عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ج١.
(٢) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص٦١، أنظر أيضاً: القاموس المحيط، الفيروز أبادي.
(٣) الرسالة التفسيرية، ص٣٢
(٤) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٣٩
(٥) الرسالة، ص٦١
(٦) ٢٤ ـ النور ٣٧
(٧) ٥٥ الرحمن: ٤٦
(٨) المعجم المفهرس للأحاديث النبوية الشريفة ج٥، ص١٧
(٩) الرسالة، ص١٤
(١٠) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٣٦
(١١) المناوي، فيض القدير، ج٣، ص١١
(١٢) القشيري، ص٧٤
(١٣) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٤٠
(١٤) الزركلي، ج٤، ص١٧١
(١٥) الفتح الرباني، قواعد الطريقة

(١٦) الزركلي، ج١، ص١٦٩ أيضاً ابن خلكان ج١، ص٥٥، أيضاً مرآة الزمان ج٢، ص ٣٧٠، الشعراني، ج١ ص١٢١.
(١٧) صلاح عزام، الأقطاب الثلاثة، ص٢٥.
(١٨) المرجع عينه.
(١٩) الزركلي ج٥، ص١٢٠، يذكر علي سالم عمار أنه ولد عام ٥٩٣ وهو في عماره.
(٢٠) الزركلي ـ ج٢٥، ص١٢٠، طبقات الشعراني، ج٢، ص٤.
(٢١) علي سالم عمار ـ أبو الحسن الشاذلي، ج١، ط أولى، ص١٥ ـ ٣٠
(٢٢) الزركلي، ج١، ص١٧١، وأيضاً شذرات الذهب، ج٥، ص٣٤٥ الشعراني، ج١، ص١٥٨، كتاب أقطاب التصوف الثلاثة، صلاح عزام.
(٢٣) ردود على شبهات السلفية، محمد نوري الشيخ رشيد النقشبندي الدير شوري ص٣٩.
(٢٤) جلال الدين الرومي، عناية الله ابلاغ الافغاني، ص٢٣.. أيضاً الزركلي، ج٧، ص٢٥٨.
(٢٥) جلال الدين الرومي، عناية الله ابلاغ الافغاني.
(٢٦) الزركلي، ج٧، إذ يذكر في أن شعر جلال الدين الرومي يدل على أنه من الغلاة.

مراجع البحث

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ المعجم المفهرس للأحاديث النبوية الشريفة فنسنك.
٣ ـ المنقذ من الضلال، الغزالي، تحقيق فريد جبر.
٤ ـ التعريفات، القاضي الجرجاني، مكتبة لبنان.
٥ ـ الرسالة القشيرية، القشيري، دار الكتاب العربي بيروت.
٦ ـ القاموس المحيط، الفيروز ابادي، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٢.
٧ ـ فيض القدير، المناوي، بيروت دار المعرفة ١٩٧٢.
٨ ـ قوت القلوب المكي، القاهرة، ١٣١٠هـ.
٩ ـ الزركلي خير الدين، الاعلام، ط٣ ـ بيروت ١٩٦٩.
١٠ ـ طبقات الشعراني ـ المطبعة الشرقية ١٢٩٩هـ.
١١ ـ شذرات الذهب، المسعودي.
١٢ ـ طبقات الصوفية، عبد الرحمن السلمي. تحقيق نور الدين شربية.
١٣ ـ تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ـ د. عمر تدمري.
١٤ ـ أقطاب التصوف الثلاثة ـ صلاح عزام، دار الشعب ـ ١٩٦٨.
١٥ ـ جلال الدين الرومي، د. عناية الله إبلاغ الافغاني ـ الدار المصرية ـ اللبنانية ـ ١٩٨٧.
١٦ ـ محمد نوري الشيخ رشيد النقشبندي الديرشوي ـ ردود على شبهات السلفية، مطبعة الصباح ـ ١٩٨٧.
١٧ ـ علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي، ج١، ط أولى ـ ١٩٥١.

● لا يفوتنكم أن تحتجوا على كل أمر ترون فيه مخالفة للقانون مهما كان صغيراً في نظركم، فربما كان لهذا الأمر الصغير علاقة في المستقبل بأمر كبير، فيتخذ سكوتكم في هذا حجة عليكم.

«سعد زغلول»

● لا تمكن أهل البلاء الحسن عندك من التدلل عليك. ولا تمكنن من سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم.

«ابن المقفع»